سلسلة تفريغات شبكة بينونة

احفظ الله يحفظك

الشيخ
أ.د. محمد بن غيث

قام بها فريق التفريغ في
شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@baynoonanet

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر شبكة بينونة للعلوم الشرعيَّةِ أن تقدِّم لكم تفريغا لمحاضرة بعنوان

احفظ الله يحفظك

للشيخ

د.محمد بن غيث غيث

حفظه الله تعالى

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به الجميع

حقوق الطبع محفوظة لشبكة بينونة للعلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه و نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أما بعد :

أيها الأفاضل :

أسال الله بمنه وكرمه أن يعيننا وإياكم على ذكره، وشكره، وحسن عبادته، وأساله سبحانه كما جمعنا في هذا المكان الطاهر المبارك من غير حول منا ولا قوة، أن يجمعنا في دار رحمته ومستقر جنته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، كما أساله سبحانه وتعالى أن يثقل موازين من بنى هذا الصرح العظيم، وسعى للخير ونشره بين المسلمين

أيها الأفاضل عنوان محاضرتنا في هذه الليلة المباركة احفظ الله يحفظك.

كلمة جامعة، ووصية مانعة، وقاعدة للدين متينة، مع حديث نبوي جامع، وعهد محمدي شامل، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

روى الترمذي في السنن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللهَّ يحفَظكَ، احفَظِ اللهَّ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسأَلِ اللهَّ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللهَّ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو

اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ لَكَ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ» .[١]

وفي رواية عند غير الترمذي : «احفظ الله تجده أَمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أَن ما أَخطأَك لم يكن ليصيبك ، وما أَصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أَن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسرِ يسرا».[٢]

هذا الحديث قال عنه الحافظ ابن الجوزي- رحمه الله -: « تَدبّرتُ هذا الحديث فأدهشني وكدتُ أطيش، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه! »[٣].

ولما كان كثير الفوائد عظيم المقاصد، غزير المعاني، سنقف في أطرافه ولجه، في أطرافه وسواحله على بعض المعاني، مما يقوي الإيمان ويشد العزائم.

«احفظ الله»: احفظ الله، احفظ حدوده، و أوامره، ونواهيه، بأن تقف عند الحدود فلا تتعداها، و تقف عند الأوامر فتمتثلها، وتقف عند النواهي فتنتهي عنها، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله، الذين مدحهم الله وبشرهم بجنته، قَالَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٠٧،٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة

(٣) جامع العلوم والحكم (ص٤٦٢)

تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق: ٣٢-٣٣]

ومن أعظم ما يحفظ مما أمر الله عز وجل بحفظه: الصلوات الخمس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]

ومدح المحافظين عليها بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج: ٣٤] وقال النبي ﷺ: «من حافظ عليها كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّة»[١]، وفي رواية «من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة»[٢].

وكذلك الطهارة لها قال النبي ﷺ: «وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مؤمن»[٣] أي من علامة المؤمن أنه دائم المحافظة على وضوئه، كلما انتقض وضوؤه ذهب فجدده، وهذا الدافع له الإيمان، لأن الإنسان لا يفرق بين المتوضئ وغير ه، فأمره لا يظهر للناس، ولكن لما كان الدافع له الإيمان شهد الرسول ﷺ لصاحبه بالإيمان قال: «وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مؤمن».

ومما يؤمر بحفظه الأيمان، الحلف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] والحلف يتساهل الناس في ايقاعه، وفي العمل فيما يوجبه، فالأيمان تحفظ، واسم الله

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٢٣)، وأحمد (٥/ ٣١٧)

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٩٦).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٨٢).

يُجلّ ويُعظّم، فالله أعظم عظيم، ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] قال ابن عباس: (مالكم لا تعرفون عظمته)، ولذلك قال النبي ﷺ: «أُذِن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش» (١) وعرش الرحمن يحمله ثمانية من الملائكة، والله غني عن العرش وعن حملته ، ولكن ليظهر للخلائق عظمته ، وقد جاء في الآثار «أن الله لما خلق العرش أمر الملائكة باستقلاله فقالوا : كيف نرفعه والله عليه قد استوى؟ فقال: قولوا لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقد صح عن ابن عباس رضي لله عنهما وغيره أن الكرسي الذي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو موضع القدمين .

قال ﷺ:«ما السماوات السبع و الأرضون السبع بالنسبة للكرسي إلا كحلقة ملقاة بفلاة »(٢)

والعرش لا يقدر قدره إلا الله، فالنبي ﷺأوحي إليه بوصف واحد من الثمانية من حمله العرش قال : «أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش عنقه منثنية تحت العرش، قد مرقت رجلاه الأرض السفلى- أي غطت رجلاه في الأرض السفلى، فالسماوات سبع، والأرضون سبع، ما بين شحمة أذنه الى عاتقه خفقان الطير سبعمائة عام .يقول ذلك الملك: سبحانك ما أعظمك! يقول الله عز وجل: ما عرف ذلك من حلف بي كاذبا».

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧) .

(٢)أخرجه عبدالله بن أحمد في " السنة " (١ / ٢٤٦ و ٣٠٤ / ٤٥٦ و ٥٩١) .

الله عظيم، واسمه عظيم، و ذلك أمر الله بحفظ الأيمان، ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩] لا تجعل ربك أقل منزلة ممن تحب من البشر، لا يجوز الحلف بغير الله، لأنه أعظم عظيم فإذا حلفت بغيره عظّمتَه، و التعظيم بالحلف حق الله عز وجل.

ومما يؤمر بحفظه «الرأس و ما وعى، و البطن و ما حوى » وهذا هو الاستحياء من الله حق الحياء، حيث قال النبي ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللهَّ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ للهَّ، قَالَ لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللهَّ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى»(١)

و«حفظ الرأس وما وعى» يدخل فيه حفظ السمع، حفظ البصر، حفظ اللسان من المحرمات ، وهذه الجوارح الإنسان عنها مسؤول قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦] .

و «حفظ البطن و ما حوى» يتضمن حفظ القلب من الفساد، من الشهوات ، و الشبهات، وحفظ البطن من الحرام، و الفرج من الآثام، و قال النبي ﷺ: «من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة»(٢)، وقال : « يَا فِتْيَانَ قُرَيْشٍ ، لا تَزْنُوا ، فَإِنَّهُ مَنْ سَلَّمَ اللهَّ لَهُ شَبَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون: ٥]

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٤) .

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٨٧) .

ثم قال ﷺ : «يحفظك»، إذا قمت بما أمرك الله بحفظه؛ حفظك الله لأن الجزاء من جنس العمل كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾[البقرة: ٤٠] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، و حفظ الله للعبد شامل لمصالح دنياه، كحفظه في بدنه، وولده، وماله، فمن حفظ الله في صباه و قوته حفظه الله في حال كبره و ضعفه، ومتعه بسمعه و بصره، ولذلك روي عن بعض السلف رحمهم الله أنهم قد جاوزوا المئة وهم يتمتعون بقوتهم، و عقولهم، حتى إن بعضهم وثب يوماً وثبةً لا يَثِبها إلا الشباب فقيل له في ذلك فقال : «هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر»(١)

و قد يحفظ الله عزوجل لحفظ العبد لحدوده أولاده، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] أي حُفظا بصلاح أبيهما، وقد قال سعيد ابن المسيب لابنه:«والله لأزيدن لك من صلاتي لعلي أُحفظ فيك»، وقال محمد ابن المنكدر- رحمه الله -: «إنَّ الله ليحفظُ بالرجل الصالح ولدَه وولدَ ولده والدويرات التي حوله فما يزالونَ في حفظ من الله وستر»(٢)

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٣١)

(٢) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٣١)

ومتى كان العبد مشتغلا بطاعة الله فإن الله يحفظه، فمن حَفِظَ الله حَفَظَه من كل أذى، وذلك في المسند وغيره: «أن امرأة من الصحابة، خرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزة وصيصية– وهي مغزلة تغزل بها الصوف أو الشعر–، وقالت : يا رب، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإني أنشدك عنزتي وصيصيتي، قال : وجعل النبي ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربها، تبارك وتعالى، قال رسول الله ﷺ: فأصبحت عنزها ومثلها، وصيصيتها ومثلها»[١].

فمن حفظ الله حفظه من كل أذى، فمن اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه، و الله هو الغني.

بل مما يذكره العلماء في هذا الباب : أن من عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المفترسة المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى

كما يروى في السير في قصه سفينه رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ أنه كان في سفر مع أصحابه، وانكسر به المركب فضلّ الطريق، فرأى أسداً فجعل يمشي معه، حتى دلّه إلى الطريق الذي يهتدي إلى أصحابه وجعل يُهَمهِم كأنه يودعه ثم رجع[٢].

وفي ترجمة إبراهيم بن أدهم أنه رؤي نائما في بستان، وعندها حية في فمها طاقة من نرجس تدفع عنه الأذى[١].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٦٧)

(٢) رواه الحاكم (٤٢٣٥)

وعكس هذا أن من ضيّع الله ضيّعه الله، فضاع بين خلقه، حتى يدخل عليها الضرر و الأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيره، لذلك كانوا يقولون: «إني لأعصي الله ، فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي» [٢].

ومن حِفظ الله لعبده أعظَمُ حِفظ، **حِفظُ إيمانه ودينه**، فيحفظه في الدنيا من الشبهات المضلة، و من الشهوات المحرمة، و يحفظ عليه دينه عند موته، فتوفاه على الإيمان.

وجملة هذا أن الله عز وجل يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده دينه، ويحول بينه وبين ما يُفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارهًا لبعضها، كما قال الله تعالى في حق يوسف ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] .

ثم قال النبي ﷺ: «احفظ الله تجده تجاهك»،وفي الرواية الأخرى «تجده أمامك» معناه: أن من حفظ حدود الله، وراع حقوقه، وجد الله معه في كل أحواله، حيث يتوجه يثبته ،ويعينه، ويوفقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨]، «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ

---

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٣٢)

(٢) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٣٢)

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(١)

في الرواية الأخرى «تَعرّف إلى الله في الرخاء يَعرِفُك في الشدة» فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته.

ولذلك قال النبي ﷺ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ؛ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(٢)

ولذلك قال الضحاك. ابن القيس: « اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدَّة، إنَّ يونس عليه السلام كان يذكر اللهَ، فلمَّا وقع في بطن الحوت قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٤] فلما كان عند الرخاء من الذاكرين الله عز وجل نجاه عند الشدة،- قال: و إن فرعون كان طاغيه ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنتُ فقال الله: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١] »

وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا ما هي؟ الموت، وما بعده أشد منه، إذا لم يكن مصير العبد إلى خير فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما بعده في حال الصحة بالتقوى، والأعمال الصالحة.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٢) .

فمن حفظ الله في الرخاء حفظه الله ووفقه عند الشدة، ومن استعد للقاء الله بالصالحات، ذكره الله عند الشدائد، فكان معه، ولطف به، وأعانه، و تولاه، وثبته على التوحيد، فلقيه و هو راضٍ عنه، ومن نسي الله في حال صحته ورخائه، ولم يستعد حينئذ للقائه نسيه الله في هذه الشدائد، و أعرض عنه، و أهمله.

فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه، وجاءته البشائر من ربه والعكس بالعكس سيقول ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦].

قال ﷺ : «إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» هذا كقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فتضمن الأمر سؤال الله عز وجل دون غيره، وأن يُستعان به دون غيره، وهذا من أعظم عبادة الله التي من خرج عنها خرج عن الإيمان بربه عز وجل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠] .

«إذا سألت فاسأل الله» فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[1]

و لذلك نهى النبي ﷺ عن مسألةِ المخلوقين، بل كان يأخذ البيعة عن أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا، حتى إن الرجل الواحد منهم يكون على بعيره و أخوه يمشي

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٥) .

معه فيسقط السوط من على البعير فلا يقول لأخيه ناولني، إنما ينيخ البعير ثم يأخذ سوطه، ثم يركب من جديد[١].

والله هو الذي يجيب، قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟»[٢]

قال طاووس – رحمه الله – : «إِيَّاكَ أَنْ تَطْلُبَ حَوَائِجَكَ إِلَى مَنْ أَغْلَقَ دُونَكَ بَابَهُ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا حِجَابَهُ ، عَلَيْكَ بِمَنْ بَابُهُ لَكَ مَفْتُوحٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَوَعْدَكَ أَنْ يُجِيبَكَ»، هذا من باب السؤال.

أما الاستعانة لله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع المضار عن نفسه، ولا معين له عن مصالح دنياه و أُخراه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المُعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق (لا حول ولا قوه الا بالله)، فالعبد لا حول له ولا تحوّل له من حالٍ إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، ولذلك كانت هذه الكلمة كنز من كنوز الجنة.

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، لذلك إذا سمعت النداء حي على الصلاة، حي على الفلاح، ماذا تقول؟ لا حول ولا قوه الا بالله، لولا توفيق الله لك ما أتيت، ولذلك كان الصحابة يقولون وهم في غزواتهم

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٢)

(٢) رواه ابن ابي الدنيا (٥٤) في القناعة و التعفف

ومجاهدتهم لأعدائهم، وفي حفر الخندق: (وَاللهِ لَوْلا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا) ،فالفضل كله لله عز وجل.

ولذلك قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»[١]، فمن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكَّله الله الى من استعان اليه، وليس ذلك إلا الخذلان.

ثم قال ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ» هذا فيه تعليق القلب بالله، وطلب الرجاء منه، وتفويض الأمر إليه قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء حقيقة ، و ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٢]

«رفعت الاقلام وجفت الصحف» هذا كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ من الأمور كلها من أمد بعيد، «رفعت الاقلام» التي يكتب بها القدر «وجفت الصحف» على ما كتب فيها .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) .

(٢) رواه أحمد (٢٧٤٩٠) .

ولذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢]

في صحيح مسلم قال النبي ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »(١)

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: « أن رجلا قال: يا رسول الله ففيم العمل اليوم أفيم جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: « بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر »(٢)

وفي حديث عباده بن الصامت رضي الله عنه قال ﷺ: « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، فَجَرَى في تلك الساعة بِمَا هُوَ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ إِلَى أيوم القيامة »(٣)

. فليس للمؤمن إلا أن يطيع ربه، ويحفظ حدوده و يرضى بمقدوره.

وفي الرواية الأخرى «واعلم أن في الصبر على من تكره خيرا كثيرا - هذه في رواية ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم-، واعلم ان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا- يعني: ما يصيب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها كان له في ذلك أجر عظيم، وثواب جزيل.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه ومسلم (٢٦٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢١٥٥).

و لذلك جاء في رواية عمر مولى غُفرة، وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وإلا لم تستطيع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا»، هنا درجتان:

درجة الرضا، و درجة الصبر، إذا جاء البلاء الصبر واجب، والرضا درجة عالية، الرضا أن يرضى بذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة –رحمه الله–: « هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من الله فيرضى ويُسلم» (١)

ولذلك قال النبي ﷺ: « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» (٢)، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : «أسالك الرضا بعد القضاء»(٣) رواه النسائي.

ومما يدعو المؤمن إلى الرضى بالقضاء تحقيق إيمانه، معنى :قول النبي ﷺ: «لا يقضي اللهّ للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(٤).

---

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤٢) .

(٢) رواه الترمذي (٣٩٩٦) .

(٣) رواه النسائي(١٣٠٥) .

(٤) جاء عند مسلم بلفظ (عجبا لأمر المؤمن كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.....)

وجاء رجل الى النبي ﷺ فسأله أن يوصيه وصية وجيزة، جامعة، مانعة، فقال ﷺ له: «لا تتهم الله في قضائه» لا تتهم الله في قضائه، كل ما يقضيه الله لك هو خير، عليك أن ترضى وتسلم، فسيأتيك الخير في الدنيا قبل الآخرة .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَّ إِذَا قَضَى قَضَاءً أَحَبَّ أَنْ يُرْضَى بِهِ» (١)

"فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيم، وسرور، كما قَالَ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] قال بعض السلف: «الحياة الطيبة هي الرضى والقناعة» (٢).

وقال عبد الواحد بن زيد – رحمه الله – : « الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين» (٣) هذه الدرجة فضل ورفعة.

وأما الدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء، وهو لم يستطع أن يرضى، يعني من لم يستطع الرضا بالقضاء عليه أن يصبر .

فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر خير كثير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠] وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤١)

(٢) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤١)

(٣) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤١)

عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

قال الحسن –رحمه الله-:«الرضا عزيز ولكن الصبر مُعول المؤمن» (١).

ما الفرق بين الرضا والصبر؟ ذكر ابن رجب : «أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك- يعني: يكف نفسه عن التسخط، ويشعر بالألم ويدعو الله أن يزيله عنهن و يتمنى زواله بسرعة ، -كف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، و أما الرضا فهو انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال ذلك المؤلم، و إن وجد ذلك فإنه يخفيه(٢).

وقوله « واعلم أن النصر مع الصبر» هذا موافق لقوله تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وقد سأل عمر رضي الله عنه أشياخ عنده قال: بما كنتم تقاتلون الناس؟ قالوا : بالصبر لم نلق قومًا إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

وهذا في جهاد العدو الظاهر، وكذلك في جهاد العدو الباطن، وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما أعظم من جهاد العدو الظاهر، كما قال النبي ﷺ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»(٣)

---

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤٢) .

(٢) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤٢) .

(٣) رواه الترمذي (١٦٢١) .

وقوله :«إن النصر مع الصبر» يشتمل على النصر في الجهادين جهاد العدو الظاهر، و جهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما نُصر، وضَفر بعدوه، ومن لم يصبر وجزع قُهر وصار أسيرا لِعدوه او قتيلاً له.

«وأن الفرج مع الكرب » الفرَج إذا اشتد الكرب جاء الفرج قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠] لذلك قال الله عن نبيه يعقوب ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧] وتكررت قصص القرآن مع الأنبياء في هذا الباب، يؤذون ثم يأتيهم النصر.

وقوله «إن مع العسر يسرا» منتزع من قوله عز وجل﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾[الطلاق: ٧] قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ [الشرح: ٥-٦]

ومن اللطائف أن النبي ﷺ قرن بين أمرين: (و إن النصر مع الصبر)، قرن بين هذين، وبين الفرج مع العسر، هذه المقارنة هنا الكرب بالفَرَج، و العسر أن الكرب إذا اشتد، وعظُم، وتناهى، وحصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين اتجه القلب إلى الخالق، وهذا هو حقيقه التوكل فيأتي النصر.

والفائدة الثانية: أن الإنسان قد يدعو ويبذل الأسباب ثم لا يجد جوابا فيرجع على نفسه باللوم ويتهمها بالتقصير فينكسر قلبه، واذا انكسر قلب العبد أتاه النصر من

ربه، قال الفضيل: «لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريد» [١].

فهذه الوصية أيها الأفاضل بها يعيش الناس، وبها السعادة، أوصى بها النبي ﷺ غلاما من غلمان الصحابة، صغير كان خلفه على حمار، وفيه تواضع النبي ﷺ، و استغلال الوقت مع أصحابه، وغرس القيم العالية، و ثواب الإيمان في قلوب النشء، (يا غلام: إني أُعلمك كلمات)، فالناس إنما تتقهقر دنياهم و تأتيهم الفتن بنقصهم وتقصيرهم في حفظ حدود الله، وما أمر الله، فهذه أيها الأفاضل تذكرة، وهذا الحديث شرحه طويل ذكر بن رجب نُتفاً من ذلك في كتابه جامع العلوم والحكم، وقد قال عن ذلك قد أفردت في شرحه كتاباً عظيما.

فهذه تذكرة أسال الله عز وجل لنا ولكم التوفيق، و السداد، و العصمة، والرشاد، كما أسأله سبحانه أن يحفظنا وإياكم في ديننا، ودنيانا، وأهلنا، وأنفسنا، وأولادنا، وأموالنا، كما أسأله أن يحفظ بلادنا من الفتن، وأن يحفظ ولاة أمورنا بحفظه، و أن يوفقهم بتوفيقه، و يجزيهم عنا خير الجزاء، و أن يقينا شرور الأفكار المنحرفة والفتن الهدامة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، كما أتقدم بالشكر لكم لحضوركم، و استماعكم، أسال الله لنا ولكم التوفيق، والسداد، والرشاد، وبارك الله فيكم و السلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

---

(١) انظر: جامع العلوم و الحكم (ص٢٤٥)

www.baynoona.net

شبكة بينونة للعلوم الشرعية

نعتني بنقل العلم الشرعي في دولة

الإمارات العربية المتحدة